وما كان ربك نسيًا

أ. د محمد حامد
الأستاذ المساعد بقسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله صحبه أجمعين.

أما بعد: فقد كان رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم ينتظر بشوق مجيء جبريل عليه السلام لما كان يُبلغه إياه عن ربه سبحانه من وحي معصوم، ويظهر أثر ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم في جُوده وطاعته لربه.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان جبريل يلقاه في كل ليلة من رمضان، فيدارسه القرآن، فلرسول الله صلى الله عليه وسلم حين يلقاه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة» (صحيح البخاري (ح٣٢٢٠)، وصحيح مسلم (٢٣٠٨)).

وإذا غاب جبريل عليه السلام عن النبي محمد صلى الله عليه وسلم زمنا اشتاق إلى لقائه، وترقَّب مجيئه بلهفة شديدة، ومن الثابت عنه صلى الله عليه وسلم في هذا الباب أنه قال لجبريل عليه وسلم: «ألا تزورُنا أكثر مما تزورنا؟»، قال: فنزلت: «**وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا**» (سورة مريم:٦٤) (صحيح البخاري: ٣٢١٨).

وقد أوضحت هذه الآية الكريمة أن جبريل عليه السلام لا يتنزَّل إلا بأمر من الله تعالى، وما كان له أن يسبق أمر الله تعالى وقوله، وهذا دأب الملائكة عموما قال الله عز وجل: «**وَقَالُوا اتَّخَذَ**

Upload by : altawhedmag.com

الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (٢٦) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ» (سورة الأنبياء: ٢٦-٢٨).

وقوله تعالى: «لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ» كناية عن إحاطة علمه سبحانه بكل شيء ذاتا وصفة زمانا ومكانا لا يخفى عليه شيء عز وجل.

قال ابن جزي في تفسيره (٤٨٣/١): «لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ»: أي: له ما قدامنا وما خلفنا، وما نحن فيه من الجهات والأماكن، فليس لنا الانتقال من مكان إلى مكان إلا بأمر الله، وقيل ما بين أيدينا: الدنيا إلى النفخة الأولى في الصور، وما خلفنا: الآخرة، وما بين ذلك: ما بين النفختين وقيل: ما مضى من أعمارنا وما بقي منها، والحال التي نحن فيها، والأول أكثر مناسبة لسياق الآية».

وأمَّا قوله عز وجل: «وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا» (سورة مريم: ٦٤)؛ ففيه بيان أنه سبحانه وتعالى لم ينسَ رسوله صلى الله عليه وسلم، ولكنه أخَّر نزول جبريل عليه السلام لحكمة، وهو سبحانه الحكيم العليم.

أي: وما كان ربك عز وجل تاركًا لك، وعدم النزول لم يكن إلا لعدم الأمر به لحكمة بالغة فيه، ولم يكن لتركه تعالى لك وتوديعه إياك كما زعمت الكفرة.

ونظير هذا المعنى في الآية الكريمة ما ثبت في نزول آيات سورة الضحى.

عن جندب رضي الله عنه، قال: «احتبس جبريل صلى الله عليه وسلم على النبي صلى الله عليه وسلم»، فقالت امرأة من قريش: أبطأ عليه شيطانه، فنزلت: «وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى، مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى» (الضحى: ٢) (صحيح البخاري ح١١٢٥)، وفي رواية لمسلم (ح١٧٩٧): «أبطأ جبريل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال المشركون: قد ودع محمدٌ فأنزل الله عز وجل: «وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى، مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى» (الضحى: ٢)».

فوائد جليلة وتنبيهات لطيفة

وفي قوله تعالى: «وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا» فوائد جليلة وتنبيهات لطيفة منها:

١-أنها تبعث في قلوب العباد الطمأنينة والرضا بقضاء الله تعالى، والتسليم لحكمه، وحسن الظن به سبحانه.

إن المؤمن إذا وجد في واقع الناس ما يثير السؤال، ويستدعي الاستفسار كيف قدَّر الله ذلك، ولمَ ترك هذا، ولم لمْ يُؤاخذ هذا ويهلكه وهو ظالم مفسد يأتيه الجواب، ويسعفه الرد بقوله تعالى: «وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا»، ونظيره في ذلك قول الله سبحانه: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ» (سورة المؤمنون: ١٧)، وقوله تعالى: «وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ» (سورة إبراهيم: ٤٢).

فهو سبحانه ليس بغافل عن الخلق وأفعالهم، ولكنه يؤخر من يؤخره لحكمة، ويُمهله لحكمة لا يعجل سبحانه لعجلة أحد بل جعل لكل شيء مقدارا فهو منته إليه، وصدق الله الحليم إذ قال: «وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ» (سورة النحل: ٦١)، وقال عز وجل: «وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا»

Upload by : altawhedmag.com

(سورة فاطر:٤٥)، وقال جلَّ وعلا: «وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا» (سورة الكهف: ٥٨).

إننا بنظرتنا العجلى، ورؤيتنا القاصرة قد يقع منا استشكال لما نشاهد من استطالة أعداء الدين ومنعتهم، واستضعاف المسلمين، وهوانهم، وعند التدبر والتأمل يزول الإشكال، ويتضح الحال، ويعلم أن كل شيء بقدر، وأنه سبحانه -وهو العليم- لا يخفى عليه شيء في الأرض والسماء.

إن رب العزة سبحانه لا يخفى عليه تسلُّط هؤلاء اليهود الغاشمين على المسلمين المستضعفين في غزة وغيرها، وهو قادر سبحانه على نصر المؤمنين واهلاك المعتدين، ولكنه جعل للنصر أسبابا، وللظفر مفتاحا فمن أخذ بالأسباب، واستعمل المفتاح بحقه فُتح له، وكان من المنصورين.

قال تعالى: «وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ» (سورة الروم:٤٧)، وقال تعالى: «إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ» (سورة غافر:٥١).

إن ربنا لم ينسَ أفعال المجرمين، ولا أعمال المعتدين، ولم ينس أيضًا أنين المستضعفين، ولا دماء المجاهدين، ولكنه الحكيم العليم.

إن ربنا سبحانه لم ينسَ، ولم يغفل عن استغاثة المستغيثين، وحال الفقراء البائسين.

ولكنه سبحانه جعل في خلقه سننا لا تحابي أحدًا ولا تجامله، ومن سننه في خلقه سنة الابتلاء والتمحيص وسنة الإملاء والاستدراج.

فالله سبحانه يبتلي عباده المؤمنين بالابتلاءات، ويمتحنهم بالامتحانات ليطهرهم ويمحصهم، وليغفر لهم ويرفعهم، وليتبين المؤمن الصابر المحتسب من غيره وهو العليم سبحانه.

قال تعالى: «وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ» (سورة محمد:٤).

وقال تعالى: «لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ» (سورة آل عمران:١٨٦).

والله سبحانه يملي للظالم ويستدرجه فيزداد غيًّا وضلالًا وفسادًا وإفسادًا فيأتيه العذاب بغتة والهلاك هجمة فيستأصله ويجتثه ويقضي عليه فلا إفلات ولا مناص، ولا ملاذ ولا مهرب.

قال تعالى: «وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ» (سورة الأعراف: ١٨٢-١٨٣)، وقال تعالى: «وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٧٦) إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٧) وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٧٨) مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ» (سورة آل عمران:١٧٦-١٧٩).

٢- ومن فوائد هذه الجملة الكريمة «وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا» أنها توقظ الضمير، وتورث القلب المراقبة، وتجعله في انتباه من غفلته، ويقظة من رقدته.

العبد ينسى وربه لا ينسى، يقع أحدنا في ذنوب ومخالفات ثم يغفل عنها وكأن أمرًا لم يقع،

Upload by : altawhedmag.com

وكأن إثما لم يُرتكب، فما أشد هذه الغفلة، وما أقبح هذا النسيان. قال تعالى: «يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ» (سورة المجادلة:٦).

وقال تعالى: «وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا» (سورة الكهف:٤٩).

فعلينا أن نستغفر الله مما نعلمه من أنفسنا، ومما لا نعلمه، وأن نسأله العفو والمغفرة والرحمة فهو العفو الغفور الرحيم.

دع عنك ما قد فات في زمن الصبا
واذكر ذُنُوبك وابكها يا مُذنبُ
واخش مُناقشة الحساب فإنَّهُ
لا بُد يُحصَى ما جنيتَ ويكتبُ
لم يَنْسَهُ الملكان حين نسيتَهُ
بل أثبتاه وأنت لاهٍ تلعبُ
والروحُ فيكَ وديعةٌ أُودعتَها
سترُدُّها بالرغم منك وتُسلبُ
وغُرور دُنياك التي تسعى لها
دارٌ حقيقتُها متاعٌ يذهبُ
والليل فاعلم والنهار كلاهما
أنفاسنا فيها تُعدُّ وتُحسبُ
وجميعُ ما حصلته وجمعته
حقًّا يقينًا بعد موتك يُنهَبُ
تبًا لدار لا يدومُ نعيمها
ومشيدها عما قليل يَخْرَبُ

٣- من فوائد هذه الجملة الكريمة أيضًا أنها تدفع العبد إلى البذل والعطاء إخلاصًا واحتسابًا مع اليقين بأن الجزاء ثابت، والأجر لا يضيع.

إذا علمت أن ربك لا ينسى ولا يغفل فاجتهد في فعل الخيرات، ولا تنتظر من أحد جزاءً ولا شكورًا، ولا تخشَ من ضياع عملك إذا أخلصت وأحسنت؛ فإن ما عند الله باقٍ لا ينفد، وهو سبحانه الكريم الواسع العليم. قال تعالى: «وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ» (سورة آل عمران: ١١٥).

وقال تعالى: «مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» (سورة التوبة:١٢٠-١٢١).

إن العبد ليؤجرُ ويُثاب على نيته الحسنة، فضلًا عن عمله؛ فكيف لو استمر وثبت! ومن أسماء الله عز وجل الشاكر والشكور فهو سبحانه يُعطي عباده ويمن عليهم بالأجر الكبير والثواب الجزيل في مقابلة العمل القليل الذي يعود عليهم لا عليه، وينفعهم ولا ينفعه سبحانه وصدق الله إذ قال: «مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا» (سورة النساء:١٤٧).

فعلمك- يا عبد الله- بأن ربك سبحانه لا يغفل ولا ينسى يدفعك إلى أن تخلص له وتجتهد في فعل الخير ابتغاء مرضاته، ورجاء لثوابه؛ قال تعالى: «وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَى» (سورة الليل: ١٧-٢١).

نسأله سبحانه رضاه والجنة، ونعوذ به من سخطه والنار. والحمد لله رب العالمين.

Upload by : altawhedmag.com